

قوى وعظلة

بقلم الأستاذ إبراهيم اللبان
B. A, M. A, T. D. London
المفتش بوزارة المعارف

هناك ظاهرة اجتماعية مألوفة مأنوسة ولكن في دائرة خاصة . كلنا يشعر بحركة الارتفاع والانخفاض المستمرة في قيم الحاصلات الزراعية والمشجبات الصناعية . وقليل منا من يشعر بحركة أخرى مماثلة لها . نالواقع أن ارتفاع القيم وانخفاضها لا يقتصر على حاجتنا المادية بل يتعداها إلى أشياء أخرى كثيرة، فالصفات الخلقية والفنون والآداب والأعمال الاجتماعية تقوم كما تقوم المواد الغذائية وتختلف قيمها من عصر إلى عصر ومن شعب إلى شعب . ولكل عصر مذهب في تقدير قيمها وتحديد منزلتها .

ولست أود أن أفيض في شرح ذلك بل سأكتفى بالإيجاز المبين . فالفنون الجميلة مثلا قد تعاورتها ضروب التقدير في العصور التاريخية المتعاقبة . فبينما تضعها الشعوب في عصور جاهليتها في مرتبة رفيعة إذا بها في عصور التدين تنزل إلى مكان من الضعة سيئ ثم لا تلبث أن تشرق شمس المدنية فإذا بها تتردد المفقود من قيمتها وعالي منزلتها .

وأسلوب التقدير أو فلسفة الحياة من الدراسات الشائقة المثمرة، وقد كانت هذه الدراسة إلى عهد قريب نظرية بحتة ولكن لم يلبث الأسلوب العلمي المؤسس على التجارب أن دخل هذا المجال أيضا وألقى كثيرا من الضوء على الكثير من مسأله العويصة .

ومن أطرف التجارب ما قام بها بعض علماء أمريكا إذ اختار عددا كبيرا من المثقفين وأجرى عليهم تجربة قصد بها تحقيق الفرق بين أبناء هذا العصور وبين ماسبقه من عصور في التقدير الأخلاقي للوصايا العشر (لا تسرق ، لا تكذب ، لا تقتل ، لا تزن الخ) . فقد طلب إلى كل منهم أن يقدم له قائمة يرتب فيها هذه الوصايا حسب خطورتها وجسامتها في رأيه وعقيدته . وما كان أشد دهشته إذ وجد أن أبناء هذا الجيل يضمون في المنزل الأخيرة من الخطورة ما كان آباؤهم يعدونه أقبح الآثام وأشنعها .

والتقدير عملية نفسية بطيئة النشوء والترقي تنشأ تحت تأثير عوامل كثيرة لا نحاول استقصاءها ولكنا مع ذلك لانرى بأسا من الإشارة إلى أحدها .

أصبح المجتمع وما يمس سعادة المجتمع ورفاهيته بإجماع من الشيوعيين والاشتراكيين والديموقراطيين من أهم الأمور وأعظمها خطورة . فإذا ظهرت جهة نفع اجتماعية كبيرة

1
في أحد المرافق علت قيمته وارتفعت مكانته بمقدار ما يستطيع أن يؤدي للجمع من فائدة
ونفع اقتصادي أو عمري . ولعل القوة بضرورها المختلفة من أظهر الأمثلة التي تخطر بالبال
في هذا الصدد .

لم تظفر القوة في عصر من العصور بمثل ما ظفرت به في عصرنا هذا من تقدير عال ،
فقوة الشخصية والقوة العضلية والقوى المادية الكثيرة تتمتع اليوم بتقدير كبير جدا . وهامى
ذى عبادة الأبطال التي بكأها توماس كارليل وظن أنها قد ذهبت إلى غير رجعة قد عادت
إلى الظهور ووصلت إلى درجة لم تعرفها الشعوب حتى في عهود بداوتها وعصور جاهليتها .
أما مصادر القوى المادية كمناجم الفحم ومنايع الزيت فقد صارت منذ سنين طويلة مطمح
الشعوب وقبلة الأنظار وعاملا من أكبر عوامل السياسة الدولية .

وسبب ذلك واضح ، فقد استكشفت الشعوب في طموحها إلى القوة والمنعة واليسر
والرخاء معنى القوة الروحية والمادية وأثرها القوى كوسائل لهذه الغايات القومية العالية
وأقول استكشفت لأن هذا في الواقع استكشاف كبير قد يستغرق بالنسبة لبعض الأمم عشرات
السنين بل مئات الأعوام . فتجد المرافق متأخرة مهملة ويجوارها القوى الوفيرة ملغاة معطلة
وتعصى على ذلك السنون بل القرون دون أن يهض من زعماء تلك الشعوب من يرى الصلة
الوثيقة بين تلك القوى والمرافق ويشعر بأن صلاح تلك المرافق لا يتطلب غير توجيه هذه
القوى إليها وأعمالها فيها . ثم يظهر فجأة من يستكشف هذه الحقيقة ويقدرها قدرها . وإذا
ذاك تبدأ تلك الشعوب عصر نهوض تنشط فيه القوى ويكثر الانتاج فيعم العمران وتردهم
الحضارة .

والحق أن ظهور هذا المستكشف من أكبر الأحداث التاريخية في تاريخ الأمم والشعوب
فإنه حادث يفصل عصرين متباينين عصر ركود وتغفن وفساد وعصر نهضة عامة سريعة .
وفي التاريخ الحديث على الخصوص أمثلة قوية مقنعة لهذه الظاهرة الاجتماعية المهمة . وليس
من الضروري أن نتطلبها في غير تاريخ الأمة المصرية الحديث ، فهضة مصر الحديثة تقدم
لنا أروع الأمثلة لذلك . بل إن في النهضات المعاصرة الآن ما يغنينا عن الرجوع إلى التاريخ
بحلة فقد شهدت السنون العشر الأخيرة نهضات قوية استمدت روحها من هذا المبدأ
الاجتماعي الخطير .

ومن ثم أصبح استكشاف القوى والإرشاد إليها والدلالة عليها من أكبر الخدمات
القومية .

وإني لأذكر إلى اليوم الساعة التي وفقت فيها إلى استكشاف منجم غني مجهول من
مناجم القوى في مصر وأذكر الأسف الشديد الذي أحسست به إذ ذاك حين ذكرت ما تعبئ

هذه القوى لشعب كالشعب المصرى من رفعة ونهوض لو وجدت من ذوى النفوذ من يضمن بها أن تذهب في غير فائدة أو نفع .

حدث ذلك في أول عام قضيته في إحدى مناطق رى الحياض في صعيد مصر . فقد رأيت إذ ذاك رأى العين عشرات الألوف من الشبان الأقوياء ذوى الجلد والبأس منتشرين في طول البلاد وعرضها . رأيتهم يزرعون الأرض مرة واحدة لمدة أشهر قلائل حتى إذا حل وقت الحصاد دخلت الأرض من الزراعة أصبحوا لا يعمل لهم على الإطلاق لمدة لا تقل عن سبعة أشهر أو أكثر . فيضطرب بعضهم إلى النزوح إلى القاهرة أو مدن الوجه البحرى يطوفون فيها يبيعون الفواكه والخضر في طرقها وأزقتها ويبقى أكثرهم يتحرقون أسمى على عمل يقومون به بأقل الأجور وأضئفا .

لا أعرف الأصول العلمية لحساب مقادير القوى البشرية ولو كان في مقدورى لعددت أوائك الشبان وقست مقدار القوة المختزنة في كل منهم ثم جئت برقم يمثل مقدار تلك القوى الضائعة المعطلة سبعة أشهر كاملة في هذا العدد الكبير من الشبان الأصحاء الأقوياء لأصور بذلك لذوى السنطة مقدار الخسارة القومية التى منيت بها البلاد من ترك تلك القوى عاطلة .

ستطيع أن أقول بكل ثقة إن القوى البشرية المختزنة في أقاليم رى الحياض لا تقل على الإطلاق عن القوى المختزنة في منجم من أكبر مناجم الفحم أو الزيت . وإذا كان الثور على منجم من تلك المناجم يعد من أكبر الخدمات الاقتصادية القومية فلا يقل عن ذلك خطورة الثور على مواطن القوى البشرية الجبارة الشوافة إلى العمل .

واعتبر أنى قد ظفرت بأكبر غرض من أغراض مقالتي هذه إذا كان نقارئ قد فقد بعد هذا البيان كل تمييز بين منجم من مناجم الزيت وموطن من مواطن القوة البشرية الزائدة وأحس إحساسا قويا بأن القوة هى القوة فى أى شكل ظهرت وأنها مهما تباينت صورتها تعنى الانتاج والتقدم وال عمران .

ولقد كانت محمد على باشا مؤسس مصر الحديثة من أوائل المستكشفين لهذه الحقيقة العمرانية الكبيرة ومن أكبر المتفهمين بها ، وكان من نتائج ذلك تلك الترع والقنوات التى تنشق الأراضي الزراعية فى القطر المصرى شقا وتعمل الماء إلى كل شبر من الأرض مهما تباعدت الشقة بينه وبين النيل ، وتلك المصانع المختلفة والقطار المبينة والمرافق الكثيرة التى كانت أساس الحضارة المصرية الحالية .

ويمتد كثير من أنصار النظام الديكتاتورى أن من أكبر مضائله تقدير القوى حق قدرها والانتفاع بكل قطرة من قطراتها ذلك الانتفاع الذى نشر العمران وبث الحضارة حيث مواطن الفساد والتعفن ويشيرون إلى استخدام قوة الشباب هناك وثمرها فى تلك النهضة الرائعة .

ويقدرُونَ أن أكبر عمل قام به أولئك الرجال هو فهم معنى القوة وتقديرها واستكشافها في عضلات الرجال وأعصابهم كما استكشفها غيرهم في مناجم الفحم ومناجم الزيت ثم إصرارهم بعد ذلك على أن يحشدوها جميعاً ، ومن غير تراخ في إصلاح ما اختل من حالة بلادهم وتعفن من مرافقها .

وإذا كانت الظروف الاجتماعية في عصر محمد علي قد اضطرت إلى أماليب خاصة في تجنيد تلك القوى البشرية واستخدامها فإن من أسعد الظروف أن في الموقف الحالي ما يغنيننا عن اللجوء إلى تلك الوسائل .

ظهر في طبقات الشعب المختلفة شعور بواجبات جديدة لم تكن معروفة لآبائهم من قبل . ظهر فيهم الشعور بواجب الفرد نحو المجتمع الذي ينتمي إليه ويعتبر بنسبته إليه "الواجب الوطني" ، وعم فيهم الشعور بتأخر البلاد والتعلق عليها من جراء ذلك فتولدت في نفوس الشبان والشباب رغبة جامحة في أداء واجبهم نحو وطنهم والاشتراك الفعلي في تربيته مادياً وأدبياً والسخاء في سبيل ذلك بالجهود والأموال والأنفس .

وقد زاد هذه الرغبة اشتعالاً ما قرعوه وسمعوه عن شبان الدول الديكتاتورية الذين يقدمون أنفسهم للدولة شهوراً طويلة تنتفع بقواهم العضلية والعقلية في ترقية مرافقها وإصلاح المختل من شؤونها دون أن يفكروا في أجر أو مغنم . وأصبح ما وصلت إليه تلك الدول من يسر ورخاء وعزة مبعث تحرق منهم على أن تتاح لهم الفرصة ليصلوا ببلادهم إلى مثل تلك المستزلة الرفيعة .

مثل هذه الحالة النفسية فرصة نادرة المثال لمن يشعر بقيمتها ويفكر في الانتفاع بها من الزعماء والقادة ، فالواقع أن الشبان في طول البلاد وعرضها يتأهبون للقيام بأي عمل إصلاحي وفي شوق شديد إلى ظهور الزعيم الذي يهيب بهم ثم يحشدهم للعمل البدني والعقلي الضروري لسلوك سبيل الإصلاح العمراني والاجتماعي الذي سلكته بعض الممالك المعاصرة .

ولست أشك في أن أول زعيم مصري يتقدم لأداء هذه المهمة ستستولى عليه الدهشة والسرور والبهجة من سرعة تلبية الشبان تلبية مقرونة بالسرور والرغبة القوية . فاستعداد الشبان لسماع هذه الدعوة وتلبيةها وتشوقهم إلى سماع صوت الداعي قد بلغ الآن أشده . ولا أدري لمن من زعماء هذا البلد وعظمائه سيكتب نغمة تحقيق هذه الأمنية القومية العامة . ولكنني أعرف أن الجميع سينبطونه إذ ذاك على ما حاز من نجاح وتوفيق .

ابراهيم اللبان